بسم الله الرحمن الرحيم

الصحوة الإسلامية بين الآمال والمحاذير[1]

الحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة والنعمة المسداة، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واهتدى بسنته وجاهد جهاده إلى يوم الدين ... خير ما أحييكم به أيها الإخوة تحية الإسلام. تحية من عند الله مباركة طيبة، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

أشكر لوزارة التربية والتعليم وشئونها الثقافية وإعلامها التربوي أن أتاحت لي هذه الفرصة لأتحدث إليكم، من خلال هذا المنبر، عن موضوع يشغلني دائمًا ... تحدثت عنه من قبل، وأتحدث عنه اليوم، وسأتحدث عنه إن شاء الله من بعد. الصحوة الإسلامية هي أعظم ما نملك نحن المسلمين اليوم. أعظم ما يملك العالم الإسلامي ليس هو البترول أو القطن أو الذهب أو الفضة، وإنما أعظم ما يملكه هو هذا الشباب – الثورة البشرية – وبخاصة هذا الشباب الملتزمة بإسلام، ولهذا نحن حراص كل الحرص على أن نسدد خطا هذه الصحوة ونرشدها حتى تمضي على صراط مستقيم، ولا تحيد إلى اليمين ولا إلى اليسار ... {**وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ**} [آل عمران: 101].

معنى الصحوة:

واسمحوا لي أن نقف قليلًا عند كلمة «صحوة» ما معنى «الصحوة»؟

---

(1) افتتح بها الموسم الثقافي السابع لوزارة التربية والتعليم في قطر.

الصحوة ... إذا حللنا هذه الكلمة من الناحية اللغوية: صحا يصحو: إذا أفاق وتنبه، سواء أكانت هذه الإفاقة أو التنبه من نوم أم من سكر. قد يصحو النائم أو يصحو السكران، فهي على كل حال إفاقة وتنبه بعد غياب الوعي ... عودة الوعي، هذا هو معنى الصحوة.

وأمتنا ربما كانت في وقت من الأوقات غائبة عن الوعي بذاتها نتيجة نوم طويل أو نتيجة سكر طارئ، فلغياب الوعي سبب داخلي، وسبب خارجي.

سبب داخلي، يتمثل في الركود الذي أصاب الأمة من رواسب عصور التخلف، وسوء فهم الإسلام وسوء تطبيقه.

وهناك سبب خارجي، يتمثل في الغزة الاستعمارية التي نزلت ببلاد المسلمين، بلاء لا يقاوم، لم يكن خطر هذه الغزوة في احتلال الأرض، ولكن كان خطرها في احتلال العقول والأنفس والمشاعر والحياة الاجتماعية والأخلاقية.

يقول المؤرخ المعروف «برنارد لويس» في كتابه عن «الغرب والشرق الأوسط»: «إن أخطر ما أصاب العالم الإسلامي في تاريخه غزوتان أو كارثتان:

الأولى: غزو المغول للحضارة الإسلامية في العصر العباسي الثاني، وتدمير بغداد وتدمير المغول للحضارة الإسلامية في ذلك الوقت.

واللطمة الثانية: هي في الغزو الفكري الثقافي الحديث من العالم الغربي للشرق الإسلامي.

وأنا أعتقد أن اللطمة الثانية كانت أشد وأخطر من اللطمة الأولى، فالإسلام استطاع بقوته الذاتية أن ينتصر على التتار، الغزوة التترية لم تستطع أن تعمر

طويلًا، بغداد سقطت عام (656هـ) وبعد سنتين في عام (658هـ) وفي الخامس والعشرين من رمضان استطاع المسلمون أن يجمعوا قواهم وأن يواجهوا التتار في معركة حاسمة هي المعركة المعروفة بمعركة «عين جالوت» بقيادة المظفر قطز، بعد سنتين فقط.

وأكثر من ذلك أن الإسلام بدأ يؤثر في المغول أنفسهم، في هؤلاء التتار الذين كان يقال عنهم المثل السائر: «إذا قيل لك إن التتار قد انهزموا فلا تصدق» نفس ما يشاع اليوم عن القوة التي لا تقهر. هؤلاء بعد مدة قليلة استطاع الإسلام أن يغزوهم من الداخل فيدخلوا في الإسلام، ولأول مرة يسجل التاريخ دخول الغالب في دين المغلوب!

هذا كان موقف الإسلام والأمة الإسلامية من تلك اللطمة الكبرى ... واللطمة الأشد خطرًا في الحقيقة هي لطمة الاستعمار الغربي الحديث ... ودخوله البلاد الإسلامية دخول الغازي الفاتح الذي يذل العباد ويفسد البلاد، كما أشار إلى ذلك القرآن لكل فاتح مستعمر: {**إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ**} [النمل: 34]. يقصد بالملوك إذا دخلوا فاتحين ... يفسدون البلاد، ويذلون العباد، ويجعلون أعزة أهلها أذلة.

استطاع هذا الاستعمار المتمكن أن يفسد الحياة الإسلامية نتيجة احتلال العقول والأفكار، وتوجيه الحياة الثقافية والفكرية كما يريد، ترك الشعوب في غفلاتها، وبدأ يربي القيادات ويصنعها كما يريد ... القيادات الفكرية والسياسية والتربوية ليصنع الإنسان في بلادنا كما يريد هو، لا كما أمر الله ولا كما نريد نحن، هذا ما حدث، ولذلك كانت نتيجة هذا الغزو المركز المخطط أن يغيب الوعي إلى جانب النوم الموروث من عصور التخلف والانحطاط.

اجتمع السبب الداخلي إلى السبب الخارجي، فكان نتيجة هذا أن غابت الأمة عن وعيها وأصبحت مفتقدة للهوية، لا تعرف هويتها ولا تكشف ذاتها، تغلب في كل شيء كما صور ذلك النبي صصص تصويرًا نبويًا رائعًا حين قال: «**لتتبعن سنن من قبلكم، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا حجر ضب لدخلتموه**» وحجر الضب يضرب به العرب المثل في الضيق والظلمة والالتواء وسوء الرائحة، ولكن إذا دخل هؤلاء حجر ضب يصبح دخوله موضة، اسمها موضة حجر الضب!

وهكذا فقدت الأمة الإسلامية الشعور بالذاتية والوعي بالهوية، بالتشريع والتعليم والإعلام والحياة الاجتماعية. أصبحنا مقلدين في هذا كله، أتباعًا لغيرها ... كان هذا هو غياب الوعي، ولذلك فالصحوة تعبر عودة للوعي.

المظهر الفكري للصحوة:

ومن هنا فإن المظهر الأول للصحوة مظر فكري، هي صحوة عقل قبل كل شيء. وإذا نظرنا إلى مراحل عودة الوعي نجد أنه في وقت من الأوقات كانت هناك التبعية الفكرية المطلقة، وكان المنادون بها أجهر صوتًا من كل صوت. الذين نادوا في وقت من الأوقات أنه لا سبيل إلى نهضة هذه الأمة إلا إذا أخذت بالحضارة الغربية خيرها وشرها، حلوها ومرها، ما يحب منها وما يكره، وما يحمد منها وما يعاف، ومن ظن غير ذلك فهو خادع أو مخدوع.

في فترة من الفترات كان الفكر في ديارنا العربية والإسلامية فكرًا ذيليًا، فكرًا تابعًا تبعية مطلقة، حتى إنه لم يقل: ننتقي بمعنى أن نأخذ الخير ونترك الشر، بل قال في صراحة وبجاحة: الحضارة لا تتجزأ. فلابد أن تؤخذ بخيرها وشرها، ونفعها وضرها، وحقها وباطلها، مع أن هذه مغالطة، فالغرب النصراني حينما استيقظ على صيحات الشرق المسلم، وحينما

اصطدم به في الحروب الصليبية، وحينما عرفه عن طريق الأندلس أو صقلية أو غيرها، حينما استيقظ أخذ من الحضارة الإسلامية العلم ولم يأخذ الأشياء الأخرى من العقائد والشعائر والقيم والتقاليد ... واليابان حينما أخذت من الحضارة الغربية، لم تأخذ إلا الجانب العلمي والجانب التكنولوجي ... وهكذا ... ولكن هكذا كانت التبعية في ذلك الوقت تبعية صارخة.

ثم جاءت مرحلة أفضل من هذه المرحلة، وهي مرحلة الفكر «التبريري» الذي يقول: نحن مسلمون، ولا نشك أننا مسلمون، ويجب أن نتمسك بإسلامنا، ولكن هذا يحاول أن يأخذ ما عند الغرب ثم يلبسه عباءة إسلامية، أو عمامة إسلامية! أي أنه يحرص أن يأخذ مسلمات الغرب الفكرية والتشريعية والأخلاقية والاجتماعية، ثم يحاول أن يجعل لها سندًا من الشرع الإسلامي، حتى الأشياء القطعية في الإسلام مثل حرمة الربا وحرمة الخمر بعض الناس حاولوا في وقت من الأوقات أن يحللوا الربا! ويقولون: إن الربا الذي حرمه الإسلام هو ربا الجاهلية – وليس هو هذا الربا – أو الربا الأضعاف المضاعفة وليس الـ 5% أو 10% ... إلخ.

كان ذلك إثر انهزام العقل الإسلامي أمام هذا العقل الوافد من الحضارة الغربية.

ثم جاءت مرحلة أحسن وأفضل من هذه المرحلة وهي مرحلة الفكر الذي يسمونه «الفكر الاعتذاري» ومعناه: أن يجعل الإسلام في موقف الدفاع. الأصل أن الإسلام متهم، إنه في قفص الاتهام ويجب أن يدافع عن نفسه، ويجب أن نقف موقف المعتذرين عن مسلمات الإسلام.

فإذا كان الإسلام يبيح الطلاق، أو يبيح تعدد الزوجات، أو يحرم الربا أو الزنى، أو المسكرات، أو يشرع الجهاد في سبيل الله، أو نحو ذلك، فهذه

الأشياء يجب أن نعتذر عنها، كأن خط الحضارة الغربية بمدارسها الفكرية المختلفة هو الأصل، وما جاء على خلاف هذا الأصل يجب أن يبرر، ويجب أن يعلل، كأننا ليس لنا شخصيتنا المستقلة وذاتيتنا وسيادتنا.

كان هذا أيضًا هو السائد لفترة من الفترات. ثم انتقلنا، والحمد لله، إلى «مرحلة الصحوة»، وهي مرحلة مواجهة الفكر الغربي مواجهة الند للند، فأصبحنا قادرين على أن ننقذ هذا الفكر وأن نقول: هذا خطأ وهذا صواب، وهذا يقبل وهذا لا يقبل، ننتقي ونتخير بحريتنا، إنها مرحلة المواجهة مع هذا الفكر، مرحلة النقد له، هذا في مرحلة الصحوة الإسلامية، إذ لم يعد الإسلام في قفص الإتهام، ولم نعد نحتاج إلى تبرير، ومرحلة الدفاع، ودخلنا في مرحلة جديدة هي مرحلة الدعوة، أو قل: هي مرحلة الهجوم. فهذا كله من أثر هذه الصحوة. فهي صحوة فكرية، فالحمد لله أصبح من أبناء المسلمين اليوم من يستطيع أن يرد على كبار المستشرقين، أن يرد عليهم ردًا علميًا موضوعيًا. كان المستشرقون قديمًا يكتبون ولا يرد عليهم أحد، لأنهم كانوا يكتبون بعضهم لبعض، وكان أبناء المسلمين قلما يقرؤون لهؤلاء، والذين يقرؤون لهم تلاميذهم المتأثرون بهم، كانت الفترة فترة العبودية للفكر الغربي، هؤلاء أمسيهم عبيد الفكر الغربي، وليسوا تلاميذ الفكر الغربي؛ لأن التلميذ قد يناقش أستاذه وقد يرد عليه، ولكن موقف هؤلاء كان أكثر من تلمذة، كانت عبودية مطلقة. لقد انتهت فترة العبودية لفكر الغرب وأصبح من أبناء المسلمين من يناقش عتاة المستشرقين ويرد عليهم، وأصبح من هؤلاء المستشرقين من يعدل موقفه. أصبحنا نرى من هؤلاء من صار أقرب اعتدالًا مما كان من قبل، لقد تغير الموقف، فالصحوة صحوة عقل وفكر وثقافة، حتى رأينا كثيرًا من الناس الذين كانوا في خط غير خط الإسلام، داخل العالم

الإسلامي، أصبحوا يقتربون من الخط الإسلامي، سواء أكان ذلك عن اقتناع، أم عن تملق للمسار العام ... للخط الفكري العام، يريد لكتبه أن تقرأ، وقد أثبتت الأرقام الإحصائية لتوزيع الكتاب في كل معرض كتاب يقام أن الكتاب الإسلامي هو الكتاب الأول في سوق التوزيع.

حدثني الإخوة، وأنا في المتلقى الفكري الإسلامي في الجزائر، أنه حينما يقام معرض للكتاب فإن الكتب الإسلامية تنفد من أول يوم، بل من الساعات الأولى، فالطالبون لها كثيرون، والحمد لله، ولذلك نجد من الكتاب المتغربين من يحاول أن يقترب من الإسلام ليتملق القارئ المسلم، ومن هؤلاء من عدل فكره فعلًا واقترب من الإسلام، بل منهم من سار في الخط الإسلامي بصدق وإخلاص.

الذي ينظر إلى كاتب مثل الدكتور مصطفى محمود، ماذا كان ثم إلى ما صار عليه رغم ما عليه من مآخذ؟ ولكن أين صاحب «الله والإنسان» وكيف كان يفسر نشأة الدين ونشأة الألوهية؟ إلى آخره، من صاحب «رحلتي من الشك إلى اليقين» أو «حوار مع صاحبي الملحد؟» أو إلى غير ذلك.

والأستاذ: خالد محمد خالد الذي فرغ الإسلام من أعظم ما فيه في بعض كتبه، فرغ الإسلام من الحكم في كتابه «من هنا نبدأ»، ومن التشريع في كتاب «الديمقراطية أبدًا» ومن الأخلاق في كتاب «لكي لا تحرثوا في البحر» ها هو الآن يعود إلى الإسلام ويخطيء نفسه علنًا في كتابه الذي أصدره «الدولة في الإسلام»، ويبين الدوافع التي دفعته إلى ما كتبه من قديم في شجاعة لا تصدر إلا من مثل خالد.

من يقرأ لرجل مفكر مثل الدكتور زكي نجيب محمود في الأهرام في السنين الأخيرة، وما كان يكتبه قبل ربع قرن أو عشرين سنة، يرى أن هناك

تغيرًا بينًا. تغيرًا ملحوظًا في أفكار هؤلاء وغيرهم. قد يكون لنا مؤاخذات عليهم، ولكن نحن نقارن بين مرحلة ومرحلة.

ولذلك نقول: بالفكر الإسلامي الآن، والحمد لله، أصبح في مرحلة القوة، مرحلة المواجهة. فالصحوة الإسلامية صحوة فكر إلى حد كبير.

صحوة مشاعر وعواطف:

بل إن كلمة الصحوة في حقيقة معناها ليست صحوة عين من النوم، أو صحوة جسم كان راقدًا. الأصل في كلمة الصحوة عند العرب أنها صحوة فؤاد وقلب. كلنا يذكر قول جرير في حائيته المشهورة:

أتصحو أم فؤادك غير صاح

أو قول الآخر:

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله ...

الصحوة أصلًا للقلب والعقل والفؤاد، ولذلك نرى الصحوة الإسلامية والحمد لله هي صحوة عقول قبل كل شيء، ولكنها لا تقف عند هذا الحد، فهي صحوة مشاعر أيضًا ... صحوة عواطف ... صحوة قلوب. والإنسان لا يقاد بالعقل وحده. الإنسان عقل وعاطفة، الإنسان فكر وقلب، هذه الصحوة صحوة أيضًا فيها جانب من هذا التوقد العاطفي. الأمم إنما تقاد بعواطفها أكثر مما تقاد بعقولها وحدها. هذه الصحوة تجمع بين العقل والعاطفة. المشاعر الإسلامية، مشاعر الولاء للإسلام، والحب لله ولرسوله، والبغض للكفر والفسوق والعصيان فأوثق عرى الإيمان: الحب في الله والبغض في الله. وهل الإيمان إلا الحب والبغض؟ هذه مشاعر حقيقة أصبحت هي التي تؤثر الآن في الحياة الإسلامية.

صحوة عمل وسلوك:

وهي ليست صحوة عقل وشعور فقط، هي صحوة عقل وشعور، وصحوة عمل وسلوك أيضًا، صحوة التزام بالإسلام عملًا وسلوكًا، هذا ما نشهده والحمد لله. إن كثيرًا من أبناء الإسلام رجعوا إلى الإسلام، الذي يذكر منكم كيف كانت المساجد منذ ربع قرن أو عشرين سنة مثلًا وكيف هي الآن، كان رواد المساجد قديمًا هم كبار السن الذين أكل الدهر عليهم وشرب، الآن رواد المساجد من الشباب، كان الذين يحجون ويعتمرون قديمًا هم الشيوخ والعجائز، كان الحج يعتبر ختام العمر. الآن الذين يحجون ويعتمرون هم الشباب. مواسم الحجيج والعمرة نراها مزدحمة والحمد لله الآن، ومعظم هؤلاء شباب. قد تغير الوضع.

من يزور البلاد الإسلامية والعواصم الإسلامية في الشرق والغرب وبلاد العرب والعجم، يجد أن الناس يصلون في الشوراع والطرقات، في صلاة الجمعة في كل البلاد نرى المساجد تضيق على أهلها. كل هذا يدلنا على أن هناك عودة حقيقية إلى الالتزام بالإسلام.

صحوة المرأة المسلمة:

في الميدان النسائي حدث تغير هائل ... انظر إلى ظاهرة الحجاب كيف كانت، وكيف صارت. في وقت من الأوقات كان الحجاب يعتبر ظاعرة نادرة، بل ظاهرة شاذة! ما كان أحد يتوقع أن تصبح المرأة المسلمة في عقود قليلة من السنين مثلما كانت عليه في سنوات مضت ... قاسم أمين كان ينادي بأن تكشف المرأة وجهها. معركة السفور كانت معركة: هل تكشف المرأة وجهها أم لا تكشف؟ ولكن بعد سنوات قليلة كشفت المرأة وجهها، وكشف رأسها، وكشفت نحرها، وكشف ذراعيها وكشفت ساقيها، وأصبحت هناك

موضات «الميني جيب» و«الميكروجيب» إلى آخر هذه الأشياء. أصبحت إذا مشيت في شارع من الشوارع في عواصم إسلامية عريقة لا تكاد تجد امرأة محجبة، تجد امرأة كبيرة في السن ولكنها تلبس «الجابونيز» أو «الميني» أو غير ذلك من هذه الأزياء التي يسمونها «موضة»! كان هذا في وقت من الأوقات ... انظر الآن تجد آلاف الفتيات باختيارهن يلتزمن الحجاب تدينًا لا تقليدًا. هنا في قطر وفي بعض بلاد الخليج كانت المرأة تلبس «البتولة» ولكن كانت تلبسها تقليدًا، حتى إنها لا تخلعها أمام زوجها. فلم تكن المسألة تدينًا؛ لأن الدين لا يحتم عليها هذا، ولكن الآن الفتاة التي تتحجب ... تتحجب امتثالًا لأمر الله زززز ورجاء في ثواب الله وخشية من عقابه.

هذه هي الصحوة الإسلامية. هي صحوة فكر وصحوة عاطفة وصحوة عمل وهي كذلك صحة دعوة. الحرص على الدعوة وعلى تبليغها أصبح أيضًا ظاهرة موجودة مما يبين لنا ملامح هذه الصحوة. هذه هي بعض خصائص هذه الصحوة وملامحها.

صحوة عالمية:

ومن ملامح هذه الصحوة أنها صحوة عالمية، ليست صحوة في بلد دون بلد، ليست صحوة في بلاد الخليج وحدها أو في بلاد العرب وحدها، ولا حتى في داخل العالم الإسلامي، بل هي في خارج العالم الإسلامي: في الجاليات الإسلامية حيث تكون الأقليات الإسلامية، في بلاد المهجر نجد هذه الصحوة وآثارها والحمد لله. وقد لمست ذلك بنفسي وشاهدته. هذه هي الصحوة. صحوة عالمية.

صحوة شباب:

وهي كذلك صحوة شباب. الشباب هو عمودها الفقري، وبخاصة الشباب المثقف. شباب الجامعات والمعاهد العليا والمدارس الثانوية الذي أريد له في من الأوقات أن يعزل عن دينه وعن تراثه وعن أمته، وعملت فيه معاول الهدم الفكري عملها. هذا الشباب أصبح هو الذي يجسم هذه الصحوة الإسلامية والحمد لله ... الشباب المثقف.

بين الأمل والخوف:

هذه الصحوة بما لها من خصائص، وما لها من مزايا تعقد عليها آمال، وتخاف منها محاذير، هي موضع الأمل ومناط الرجاء، وهي من ناحية أخرى نخشى عليها، فمم نخاف، وفيم نرجو؟

أملنا في الصحوة:

أما موضع الأمل بالنسبة لهذه الصحوة، فالذي نأمله ونرجوه من هذه الصحوة أن تقود هذه الأمة، أن تحشد طاقاتها وتفجرها لمعركة التحرير ومعركة البناء والتقديم.

الصحوة ومعركة التحرير:

عندنا معركتان أساسيتان: معركة التحرير، تحرير الأرض الإسلامية من كل سلطان أجنبي، عندنا نحن في البلاد العربية قضيتنا الأولى قضية الوطن السليب وأرض النبوات، أرض الإسراء والمعراج، أرض المقدسات، أرض المسجد الأقصى: فلسطين. معركة التحرير هذه لا يمكن أن تتم إلا إذا كان الإسلام هو قائدها. إلا إذا كان الإسلام هو قائد المعركة.

إن عزل قضية فلسطين عن الإسلام خيانة. لا يمكن أن نصنع من هذه

الأمة رجالًا يواجهون اليهودية العالمية، وما يسندها من الصليبية العالمية، إلا إذا ربينا رجالًا مؤمنين.

النصر من عند الله ولكن لا ينزل نصره إلا على المؤمنين، وإلا بالمؤمنين كما قال تعالى: {**هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ**} [الأنفال: 62]. الإيمان هو الذي يمكن أن ينشئ الإنسان خلقًا آخر، يجعل منه بطلًا لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه.

خالد بن الوليد كان يواجه فارس والروم والأكاسرة والقياصرة، بهؤلاء الذين حرصوا على الموت فوهبت لهما لحياة. كان يبعث إلى قواد هؤلاء ينذرهم ويحذرهم ثم يقول في آخر رسائله: وإلا غزوتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة! لماذا يحبون الموت: لأنهم يعلمون أن الموت في سبيل الله حياة، وأن الفناء في الله وعين البقاء {**وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ**} [البقرة: 154].

نريد أن نفجر الطاقة الإسلامية في أبناء أمتنا بالإيمان وبالإسلام، وقد جربنا معركتين شهدناهما قريبتين: سنة 1967م دخلنا المعركة بأسلحة تسد عين الشمس، ولكن كان شعارنا «بر – بحر - جو» فلم ننتصر في بر ولا بحر ولا جو. لم تغن عنا الأسلحة شيئًا لأن الأسلحة لا تقاتل وحدها، إنما تقاتل بمن يحملها، كما قال الطغرائي:

وعادة السيف أن يزهى بجوهره ولـيس يعمـل إلا فـي يـدي بطـل!

وكما قال أبو الطيب:

ومـا تنفـع الخيـل الكـرام ولا القنـا إذا لـم يكـن فـوق الكـرام كـرام!

«خيل من غير خيال» أو «فرس من غير فارس» ماذا تغني؟

الأسلحة وحدها لم تصنع شيئًا؛ لأنه لم تكن هناك الدوافع الإيمانية القوية الواضحة.

في سنة (1973م)، في العاشر من رمضان (1393هـ) هبت نفحات رمضان، وكان الشعار «الله أكبر» فماذا صنعنا؟ اقتحمنا خط «بارليف» وعبرنا القناة، وقضينا على أسطورة القوة التي لا تقهر. على قدر إيماننا أعطينا. لو كان إيماننا أكبر لتوغلنا أكثر. المسألة مرتبطة بالإيمان.

قُد هذه الأمة بلا إله إلا الله. قدها بأحلام الجنة، قُدها «بالله أكبر» ... ستصنع العجائب.

يوم رأى قطز في معركة «عين جالوت» الجنود ينفضون من حوله، فماذا صنع؟ ألقى بخوذته على الأرض، وصاح صيحته التاريخية: «وا إسلاماه» «وا إسلاماه»!

إذا أردنا أن نتصر في معاركنا التحريرية هنا، في أفغانستان، في كشمير، في أرتيريا، في أي بلد إسلامي، فينبغي أن نعرف أنه لا يمكن أن ننتصر إلا بالإسلام، ولذلك أملنا في الصحوة الإسلامية أن توجه الأمة، أن تملأ قلوب الأمة بهذه الشعلة الإيمانية، أن تنصر الله فينصرها الله.

الصحوة ومعركة البناء والتقدم:

الصحوة الإسلامية هي الأمل في قيادة معركة التحرير. وهي الأمل كذلك في معركة التقدم والبناء، نحن نخوض معركة بنائية تنموية، نريد أن نلحق بالركب ... الراكب سبقينا سبقًا بعيدًا، هل نستطيع أن نلحق الركب؟ هل نستطيع أن نعوض ما فات؟ المشكلة أيها الإخوة أننا كلما سرنا خطوة سار الآخرون خطوات، كيف يمكن أن يلحق راكب الجمل براكب الطائرة! وإذا

استطعت أن تصل إلى الطائرة كان هو يركب الصاروخ، مشكلة ... مشكلة كبيرة جدًا.

كيف نستطيع أن نقف أمام هؤلاء وأن نلحق بهم؟ نحن محتاجون إلى طاقات هائلة تعوض النقص العلمي والنقص التكنولوجي، هذه الطاقات هي الطاقات الروحية، الطاقات الروحية التي تستطيع أن تجعل من الإنسان شيئًا كبيرًا، تفجر فيه طاقات العمل والإنتاج، الإيمان هو الذي يستطيع أن يجعل الإنسان إنسانًا عاملًا منتجًا يتعبد لله تعالى بالعمل والإنتاج. ويعتقد أن العمل عبادة وفريضة وجهاد في سبيل الله، وأن إتقانه مما يحببه إلى الله ززز: «**أن الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه**»، «**إن الله كتب الإحسان** (أي الإتقان) **على كل شيء**». لا يمكن أن نلحق بالركب إلا إذا عوضنا بطاقة معنوية تجعل من إنساننًا إنسانًا آخر.

نحن بصراحة أقل الناس إنتاجًا، أنا أرى الناس في بلاد العالم كله يتعبون، ينتجون. يعود الإنسان من عمله اليومي مكدودًا مهدودًا، فيأوي إلى أهله وإلى ولده، يقوم من الصباح الباكر إلى العمل.

ماذا نصنع في بلادنا الإسلامية؟ إنتاجا قليل وكلامنا كثير. متى ننتقل من دائرة الكلام إلى دائرة العمل؟ متى نجند الطاقات البشرية للإنتاج والتنمية؟ نحن في حاجة إلى أن نقودها هي أيضًا باسم الله؟ أن نقودها باسم الله حتى يعمل الناس مخلصين، يراقبون الله قبل كل شيء، بدون هذا لا نستطيع أن نلحق بالركب، الناس في حاجة إلى دوافع تشعرهم بأنهم يعملون لله، وأن أعمالهم هذه صلاة وعبادة.

فهل تستيطع الصحوة الإسلامية أن تقوم بهذا؟ هذا ما نأمله في الصحوة الإسلامية.

لابد من حسن الفهم للإسلام:

الصحوة الإسلامية يمكن أن تقوم بدور كبير في قيادة معركة التحرير ومعركة البناء والتقدم والتنمية، يمكن أن تقوم بهذا إذا أحسنت الفهم للإسلام وفهمت الإسلام فهمًا واسع الأفق، ولم تدر حول جزئيات معينة، حول فرعيات، حول أمور ثانوية، فهذا للأسف ما نراه في كثير من أبناء الصحوة الإسلامية وليس في كل أبناء الصحوة الإسلامية للإنصاف، ولكن في الصحوة الإسلامية مدارس شتى: هناك بعض المدارس يريدون أن يشغلوا أبناء الصحوة بهذه الأشياء، اللحية والثوب، تطويل اللحية وتقصير الثوب والتصوير والغناء، وهذه الأشياء التي أسأل عنها في كل بلد إسلامي أزوره، كأنه ليس هنا إلا أشياء معينة من الأشياء الخلافية هي موضع السؤال.

بعض الناس يسألني عن وجه المرأة: عورة أو ليس بعورة ... وهو سؤال تكرر في كثير من البلاد الإسلامية، فقلت لهم: يا جماعة دعوكم من هذا، المشكلة لم تعد وجه المرأة عورة أو ليس بعورة، المسألة أصبحت أكبر من مسألة كشف الوجه، أتريدني أن أقول للمسلمة التي غطت جسمها، ولم يظهر منها إلا الوجه والكفان. أقول لها: أنت آثمة؛ لأن وجهك عورة، لأن مذهبكم هذا أو اجتهادكم هذا؟!

هؤلاء المتشددون والمتزمتون هم الخطر كما سنذكر بعد، نحن نريد للصحوة الإسلامية أن تفهم الإسلام من أفق واسع، أن تعرف أن لكل زمن مشكلاته، وأن لكل وقت عبادته، ولكل إنسان عبادته، عبادتنا نحن الآن هي أن نعمل على استقلال الأمة، واستقلال الأمة ليس رحيل الجنود الأجانب عنها، وإنما استقلالها اقتصاديًا، واستقلالها سياسيًا، واستقلالها ثقافيًا، واستقلالها تشريعيًا، وكل هذا يحتاج إلى عمل، فأما أن نشغل أنفسنا بأشياء

أخرى فهذا ليس عبادة هذا إضاعة للوقت.

سئل أحد الصوفية القدامى – أظنه بشرًا الحافي – قيل له: إن فلانًا الغني يقوم الليل ويصوم النهار! فقال: هذا ترك حاله، ودخل في حال غيره، إنما حاله إطعام الطعام، وإغاثة الملهوف، والبذل في سبيل الله!

الغني عبادته ليس الصيام وقيام الليل، وبعد ذلك يبخل بماله عن الجهاد بالمال، وعن العمل الخيري وعن البذل، لا، عبادة الغني أن يبذل المال لله، كل وقت له عبادة، وكل حال له عبادة، لابد أن نعرف ماذا نصنع، فالصحوة الإسلامية عليها أن تخرج من الدائرة التي حصرت الإسلام فيها، بعض المدارس والفضائل، تنظر إلى الإسلام من أفق رحب: الإسلام بشموله وتوازنه وعمقه.

على الصحوة أن تمتد طولًا وعرضًا وعمقًا:

هذا ما نريده من الصحوة الإسلامية لكي تنجح، عليها أن تحسن الفهم للإسلام، وأن تمتد طولًا وعرضًا وعمقًا، وأعني بالامتداد في العمق أن تمتد في الحياة الإسلامية كل الحياة لتحررها من أخطار الغزو الفكري والاستعماري، إنه جعل للدين في حياتنا ركنًا، ركنًا اسمه ركن الدين، ركن الدين في الإذاعة: حديث ديني في الصباح أو في ختام الإرسال! ركن الدين في التليفزيون: حديث ديني أو برنامج فتاوى، ركن الدين في التربية والتعليم: حصة الدين، ركن الدين في القانون: الأحوال الشخصية، ركن الدين زاوية محدودة، هذا لا ينفع ولا يصلح إنما يصلح وتنجح الصحوة يوم تخلط الدين بالحياة، وتصبح الحياة معجونة بالدين، والدين معجونًا بالحياة، لا أريد صفحة إسلامية أو عمودًا إسلاميًا في الجريدة يوم الجمعة أو يوم الخميس اسمها الصفحة الدينية، والناس قلما يقرؤون هذه الصفحة، أنا أريد أن يدخل الدين

في الصحيفة كلها، الخبر يلون باللون الإسلامي، كثير من الأخبار يلون بلون وكالات الأنباء التي ترسلها، والتي يسيطر عليها اليهود ... أريد الرأي الذي يكتب في الجريدة أن يكون منطلق إسلامي ومن منظور إسلامي، أريد هذا، أريد في الإذاعة وفي التليفزيون، لا أريد فقط البرنامج الديني والحديث الديني، أو حديث الفتاوى الدينية أو غير ذلك لا، أنا أريد أن يدخل الدين في هذا كله، هذا إذا أردنا إعلامًا إسلاميًا.

في التربية: التربية الإسلامية ليست حصة التربية الإسلامية أو العلوم الشرعية، لا. أنا أريد أن التربية الإسلامية تدخل في برنامج التاريخ، وفي برنامج القراءة، وفي برنامج النصوص، وفي برنامج التاريخ والجغرافيا، وفي برامج العلوم. أريد أن أدرس العلوم حينما أدرسها على أنها سنن الله في الكائنات وأن هناك من ينظمها، ومن وضع هذه القوانين، وربط الأسباب بالمسببات، كلمة من مدرس العلوم تأتي عفوًا تربط التلميذ بالله أهم من حصة كاملة من مدرس العلوم الشرعية، فالتربية الدينية ليست هي الحصة فقط، لا هي حصة التربية الدينية، هي حصص العلوم كلها، هي النشاط المدرسي الذي يخدم التربية الإسلامية، هي الجو المدرسي العام، هي الجو والمناخ العام في البلد كله، كل هذه مؤثرات ضرورية لا نريد أن يكون للدين ركن في الحياة فقط وتظل الأمور الأخرى ماشية وحدها ... الدين في جانب والدنيا والحياة في جانب، ليست هذه هي النظرة الإسلامية، ربما كانت هذه هي النظرة المسيحية، المسيحية تقبل الحياة وقسمت الإنسان قسمين «أعط ما لقيصر لقيصر، وما لله لله».

ولكن الحياة عندنا ليست مقسومة بين الله وبين قيصر. الله لا يقبل الشركة لا مع كسرى ولا مع قيصر، فقيصر وما لقيصر لله الواحد الأحد، ليست

عندنا قسمة إطلاقًا، وليست هناك ثنائية، ليس هناك شيء اسمه الروح وشيء اسمه الجسد في الإنسان، حتى علم النفس الحديث لا يقول هذا، الإنسان وحدة ليس فيها انفصال، ولذلك لا يعرف الإسلام هذا الفصام النكد بين ما هو روحي وما هو مادي، ما هو ديني وما هو دنيوي.

الإسلام لا يقبل ثنائية الحياة ولا ثنائية الإنسان ويرفض هذا الإنقسام، وهذا الصراع ... هناك وحدة تيار واحد يوجه الدين والدنيا، يوجه الإنسان بروحه وجسده، لا ينبغي أن يكون المسلم مسلمًا في المسجد، فإذا خرج من المسجد صار شيئًا آخر، أو مسلمًا في رمضان فإذا فات رمضان أصبح إنسانًا آخر، التوجيه الإسلامي يقول «**اتق الله حيثما كنت**» يعني في أي مكان كنت، وفي أي زمان كنت {**وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ**} [البقرة: 115].

ولذلك يهمنا من الصحوة الإسلامية أن تمتد عمقًا في الحياة الإسلامية فتؤثر في هذه الحياة بمختلف مجاريها، ولذلك أنا يهمني أن يكون هناك المعلم المسلم، ليس معلم العلوم الشرعية فقطن لا. المعلم المسلم، والإعلامي المسلم: الذي إذا كان مذيعًا يقرأ نشرة الأخبار، أو يعد برنامجًا أو غير ذلك، يعده من منطلق إسلامي، والأديب المسلم، والشاعر المسلم. ليس الشاعر المسلم ولا الأديب المسلم هو الذي يكتب قصيدة مثلًا في مدح النبي صصص وبعد ذلك قصائده الأخرى تعبر عن تيار مادي، أو تيار لا ديني، أو تيار علماني، ويقول لك: هذه نقرة وهذه نقرة! لا. أنا أريد الأديب أو الشاعر الذي ينظر إلى الحياة وإلى الكون وإلى التاريخ من منظور إسلامي، هذا ما نريده، الصحوة الإسلامية تنجح إذا امتدت في عمق الحياة وأثرت في جوانبها المختلفة ولم تقف عند ركن أو زاوية.

ثم يجب أن تمتد الصحوة الإسلامية عرضًا، أيضًا أي في شرائح المجتمع

المختلفة، لا تقف عند شريحة معينة، بل ينبغي أن تخاطب الخاصة والعامة، المثقفين والأميين، الحكام والمحكومين، الأغنياء والفقراء ... إنها ليست صحوة طبقة ضد طبقة، لا بل هي صحوة للجميع.

ولذلك يجب أن تكون الصحوة للنساء والرجال جميعًا.

والمرأة يجب أن يكون لها دورها في هذه الصحوة ونصيبها منها، كما كان لها نصيبها منذ انطلقت شرارة الوحي الأولى، عندما نزل قوله تعالى: {**ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ**} [العلق: 1]. فكان أول صوت أيد محمد صصص صوت امرأة، كما كان أو شهيد في الإسلام هو امرأة «سمية أم عمار» وهكذا.

ينبغي أن تكون هذه الصحوة للشرائح التي ينساها الكثيرون مثل شريحة العمال، وخصوصًا العمال الصناعيين، هذه الشريحة التي تستغلها المبادئ الهدامة. الإسلام أول من عنى بالعمال وبحقوق العمال، وجعل العمل واجبًا وشرفًا وكرامة، والكلام في ذلك يطول فلا يجوز لأحد أن يبيع علينا هذا، لا والإسلام عنى بالعمل والعمال، ولذلك ينبغي لهذه الصحوة أن تمتد إلى الدائرة العمالية وتثقف هؤلاء بالإسلام وتوعيهم بالإسلام.

يجب أن يكون للطفل المسلم نصيبه من هذه الصحوة، الطفل المسلم لابد أن يكون له نصيبه، تربية الطفل، القصة للطفل المسلم، ينبغي أن نعد هذا كله، وللأسف نعتمد نحن على المترجمات أو على غير ذلك من البرامج التي نراها في أكثر التليفزيونات العربية، ولم نعد إلى الآن البرنامج النافع للطفل المسلم، هناك برنامج واحد نوهت به من قبل برنامج «افتح يا سمسم».

كان عندي عليه بعض الملاحظات ولكنه في مجموعه برنامج جيد لو وضعت فيه لمسات إيمانية أقوى مما هو الآن لكان شيئًا جيدًا. لا أريد

باللمسات الإيمانية أن تكون هناك مواقف وعظية يخوف من النار ويرغب في الجنة، لا. اللمسات الإيمانية يعرفها يخوف الذين يعدون مثل هذه البرامج، تكون غير مفتعلة وتأتي عفوية، وفي مواقف ومناسبات تتطلبها دون تكلف.

إن الإسلام يحارب في كثير من البرامج بتجاهله ... البرامج لا تشتم الإسلام ولا تهاجم الإسلام، لو هاجموا الإسلام وشتموه لكان أفضل، لأنه سيستثير غريزة المقاومة عند الناس، ولكن يحارب الإسلام بالتجاهل، بألا يذكر اسم الله أبدًا.

يأتي مسلسل لا تجد فيه {**بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ**} أو فيلمًا لا تجد فيه منظر إنسان واحد يصلي يقوم الإنسان في الصباح. ويقول: اصبر حتى أغسل وجهي ... أغسل وجهي! قل: أتوضأ – ألست مسلمًا؟ المفروض إن كنت مسلمًا فطبيعي أن تقوم: «أتوضأ». شيء طبيعي المفروض أن تقول: «إن شاء الله» عندما تعمل شيئًا، تحمد الله عندما تأتيك نعمة، وإن أصابك شيء تقول: {**إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ**} [البقرة: 156]. أشياء عفوية تصدر من المسلم ولها أثرها وإيحاؤها. تأتي مسلسلات لا يذكر فيها اسم الله إطلاقًا. ليس فيها شتيمة للإسلام، إنما تفريغ المحتوى من أي شيء يتصل بالإسلام والإيمان.

نحن نريد الطفل المسلم أن يكون له برامجه الخاصة في الإذاعة والتليفزيون والصحافة والمجلات، وأن يتفرغ لذلك مختصون يخدمون هذه النواحي بإتقان.

هناك شرائح كثيرة يجب أن تميد إليها الصحوة الإسلامية وتفكر فيها بدل أن تفكر في الوجه «عورة أو غير عورة» و«طول اللحية وقصر الثوب».

أشياء كثيرة ينبغي أن تهتم بها الصحوة الإسلامية: تمتد عمقًا وتمتد

عرضًا وتمتد طولًا، أقصد تمتد طولًا على معنى أن تستمر من الناحية الزمنية. لا تكون صحوة لمدة ثم تنطفئ الجذوة ... تتحول النار إلى رماد ... نحن نريد لهذه الصحوة أن تستمر باستمرار الإسلام، وإنما تستمر إذا استمرت على خط الاعتدال والتوازن. الغلو قصير العمر والتشدد لا يستمر طويلًا، هذا أمر معروف «إن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى».

إنما تستمر الصحوة يوم تسير في خطا الاعتدال والاتزان. لا تغلو مع الغالين، ولا تقصر مع المقصري. الصراط المستقيم ... المنهج الوسط {**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**} [البقرة: 143]. وكما قال علي بن أبي طالب: عليكم بالنمط الأوسط. يرجع إليه الغالي ويلحق به التالي.

مبشرات:

الصحوة الإسلامية تستطيع أن تقود معركتنا للتحرير وللبناء حينما تمتد طولًا وعرضًا وعمقًا في مجتمعاتنا، حينما تخرج من الدوران حول نفسها، ومن الدوائر الضيقة التي وضعتها فيها بعض المدارس أو بعض الفصائل في الصحوة الإسلامية، تستطيع أن تفعل الكثير، وخصوصًا أن هناك مبشرات وهناك عوامل مساعدة كثيرة. كنا في الزمن الماضي مبهورين بالحضارة الغربية انبهار المغلوب بالغالب كنا في عصر التخلف والركود وكان الفكر الإسلامي غائبًا، وجاءتنا هذه الحضارة فخطفت الأبصار ببريقها.

الآن تغير الموقف، الحضارة الغربية أصبحت هي تنقد نفسها، أصبح هناك المفكرون والفلاسفة من أبناء هذه الحضارة ينقدونها، عدد من هؤلاء نقدوا الحضارة الغربية «شبنجلر، وتوينبي، وكولن ولسون، وكاريل، ودبو» أو غيرهم ممن نقدوا هذه الحضارة من داخلها.

صحيح أنهم نقدوها ولم يستطيعوا الخروج من إطارها؛ لأنهم أيضًا سجناؤها، فعرفوا الداء ولم يهتدوا إلى الدواء.

نحن الذين عندنا الدواء،وقد بدأ كثير من كبار رجال العلم والفكر في الحضارة الغربية يعرفون الإسلام ويدخلونه مختارين مثل «موريس بوكاي» ومثل «رجاء جارودي» والأستاذ المفكر الكبير الذي أعلن أسلامه في مؤتمر علمي طبي لإعجاز القرآن في القاهرة قريبًا، رغم أن الإسلام ليس له قوة وليس له دولة، هؤلاء يدخلون الإسلام مقتنعين.

الحضارة الغربية الآن مفلسة فى ناحية توفير الطمأنينة الروحية للإنسان. صحيح أن الحضارة الغربية استطاعت أن تصل إلى القمر وأن تجلب من هناك أتربة وصخورًا وعينات ونماذج، ولكنها قد وضعت أقدامها على القمر لم تستطع أن تسعد الإنسان على وجه الأرض. أين السكينة؟ آلاف العيادات النفسية في أمريكا ... القلق المرضي ... الخوف من المجهول، من الموت وما بعد الموت. الأسئلة التي حيرت الإنسان من قديم ... من أين وإلى أين ولم؟ من أين جئت؟ وإلى أين أذهب؟ ولماذا أعيش؟ وما هي رسالتي؟

هذه الأسئلة لا تستيطع الحضارة الغربية أن تجيب عنها، وإن حلقت في الفضاء أو غاصت في البحر، كما قال أحد المفكرين الهنود: إن الإنسان في الغرب استطاع أن يحلق في الهواء كالطير وأن يغوص في البحر كالحوت، ولكنه لم يحسن أن يمشي على الأرض كإنسان!

لا تستطيع المادية الغربية أن تفعل هذا، ولا المسيحية قادرة أن تفعل هذا، لأن المسيحية ليس فيها التوازن الذي عندنا نحن المسلمين. الإسلام يمزج بين الروح والمادة، يوفق بين العقل والقلب، يربط الأرض بالسماء، يصل الدنيا بالآخرة، يوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة المجموع، الإسلام وحده هو

الذي يملك هذا التوازن الذي سماه القرآن {**ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ**} [الفاتحة: 6] نحن أمة الصراط المستقيم.

ومما يبشر ويجعل الأمل قويًا في الصحوة الإسلامية كذلك: أننا نحن المسلمين جربنا الحلول المستوردة من الغرب ومن الشرق، من اليمين ومن اليسار. كنا ليبراليين فترة من الفترات، ثم صرنا ثوريين فترة من الفترات، فلا هذا ولا ذاك استطاع أن يسعد أمتنا من شقاء، وأن يؤمنها من خوف، وأن يحقق لها النصر والوحدة والاستقرار. الإسلام وحده هو القادر على هذا كله، بالمنطق المحض. جربتم اليمين وجربتم اليسار، جربتم الاستيراد من الشرق والاستيراد من الغرب، لن يبق إلا أن تجربوا الإسلام.

إن التاريخ معنا ... دورة التاريخ معنا. ما دمنا جربنا هذا وجربنا ذاك لم يبق إلا الإسلام. فأقول: هناك مبشرات تجعلنا نأمل في هذه الصحوة أنها يمكن أن تؤتي أكلها وتحقق الأهداف المرجوة منها والآمال المنوطة بها.

مخاوفنا على الصحوة:

ولكن مع آمالنا الكبيرة في الصحوة. نحن نخاف عليها. بجوار هذه الآمال، هناك مخاوف، هناك محاذير، وأقول لكم بصراحة: إني لا أخاف على الصحوة الإسلامية من القوى الأجنبية المتربصة، ولا من القوى الداخلية المتسلطة. الصحوة الإسلامية تستطيع أن تصمد، وأن تثبت في وجه هذا كله، وكثيرًا ما ضربت الصحوة الإسلامية والحركات الإسلامية، فاستطاعت أن تصمد أمام الضربات وأن تخرج من المحن قوية صابرة مصابرة، ولكني أخاف على الصحوة الإسلامية من نفسها، هذا ما أخافه على الصحوة الإسلامية، أخاف عليها من تيارات متعددة يمكن أن تغلب عليها. ولا يتسع الوقت للتفصيل في هذه التيارات ولكني أشير إشارات مجملة إليها.

تيار الغلو والتشدد:

منها تيار الغلو والتشدد والتنطع الذي أشار إليه سعادة وكيل الوزارة الأخ الأستاذ عبد العزيز تركي في تقديمه للمحاضرة – الذي يسمونه التطرف – وقد كتبت في هذا كتابًا معروفًا صدر في سلسلة الأمة «الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف»[2].

أخاف عليها من الغلو والتنطع وأنا أستعمل التعبير النبوي في هذا «الغلو والتنطع»، فقد جاء عن ابن عباس أن النبي صصص قال: «**إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من قبلكم الغلو في الدين**»، وجاء عن ابن مسعود أنه صصص قال: «**ألا هلك المتنطعون، ألا هلك المتنطعون**» ثلاث مرات.

التنطع والتكلف والتعمق والتشديد والتعسير على الناس حيث ينبغي التيسير، النبي صصص أرسل أبا موسى ومعاذًا إلى اليمن فأوصاهما بوصية جامعة موجزة قال لهما: «**يسرا ولا تعسر، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا**».

ولكن هناك بعض فصائل من الصحوة الإسلامية كأنما عندهم التعسير عبادة والتنفير فريضة، لم هذا كله؟ لماذا لا نيسر على الناس؟ لماذا لا نستعمل الرخص؟ يا أخي، إذا كنت تريد أن تشدد فشدد على نفسك، لكن إذا أفتيت للناس، أو خاطبت الناس، فراع أن فيهم الضعيف والمريض وذا الحاجة، كما قال النبي صصص.

لابد أن نيسر، وبخاصة في هذا العصر. الشريعة روحها التيسير، ولكن في عصر رق فيه الدين وضعف فيه اليقين، يحتاج الناس إلى تيسير أكثر

---

(2) وصدر أيضًا عن دار الوفاء.

وأكثر، ولذلك أنا مذهبي الذي أدين الله به أني أشدد في الأصول وأيسر في الفروع.

ومن هنا أقول: أنه إذا كان هناك قولان متكافئان، أحدهما أحوط والآخر أيسر، فإني أفتي بالأيسر ... بعض الناس يقول: يا أخي لماذا لا تفتي بالأحوط؟ أقول: لا قد أفتي بالأحوط للخواص، وأفتي لنفسي إذا أردت أن أشدد على نفسي، لكني إذا أردت أن أكلم الناس وأفتي الناس فلا، وإنما أيسر عليهم، حتى يقبلوا على الدين ولا ينفروا منه، وحجتي في هذا أن النبي صصص ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا.

هناك أناس يريدون أن يشددوا، وهناك بعض العلماء وبعض الدعاة يتبعون أهواء المتشددين، كثيرًا ما يعاب بعض العلماء وأهل الفتوى وبعض الدعاة بأنهم يتبعون أهواء السلاطين، ولكن أخطر منهم من يتبعون أهواء العامة، يريد أن يرضي العوام من الناس بمزيد من التشدد، لا. هذا خطر أيضًا {**وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ 18 إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا**} [الجاثية: 18، 19].

أفتيت مرة بأن من أتى امرأته من دبر فقد ارتكب حرامًا ولكنها لا تطلق. وهناك أمر شائع عند كثير من الناس: أن من فعل هذا الأمر طلقت امرأته ... ففي برنامج هدى الإسلام قلت: لا. صحيح أنه ارتكب حرامًا ولكن المرأة لا تطلق، فاتصل بي بعض الناس وقال: يا أخي، لماذا تقول هذا؟ دع الناس على هذا الاعتقاد حتى ينزجروا عن هذا الأمر. قلت: سبحان الله! تريدون أن أغير دين الله من أجل أن أغلظ على الناس، لا. الحق يجب أن يقال.

هناك بعض الناس يريدون التشدد، وبعض الناس ينساقون مع أهوائهم ويشددون على الناس إرضاء لهم، هذا لا يجوز لا في منطق الإيمان ولا في

الدعوى. بل بالعكس ينبغي أن نيسر ما وسعنا التيسير ... الصحوة الإسلامية نخشى أن يغلب عليها تيار التشدد والتزمت. فتلغى الرخص، وتلغى التيسيرات، ويلغى الرأي الآخر، فيتمثل الجمود الفكري.

عن بعض الناس يريدون أن يجعلوا من أنفسهم مذهبًا خامسًا، فما انتهى إليه اجتهادهم وجب أن يلتزم به المسلمون جميعًا، ولا يقبلون اجتهادًا آخر. من قال هذا؟ إذا كان الشافعي ررر يقول: «رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأى غيري خطأ يحتمل الصواب» فهذا الاحتمال من الجانبين يقرب المسافة. أما هؤلاء فعلى العكس: رأيهم صواب لا يحتمل الخطأ، ورأى غيرهم خطأ لا يحتمل الصواب!

هناك من الأصوليين من لم يوافق على المقولة السابقة، لماذا يقول: إن رأيه هو صواب يحتمل الخطأ ورأي غيره خطأ يحتمل الصواب؟ الرأيان كلاهما في مستوى واحد، كل منهما يحتمل الخطأ والصواب.

بل هناك من يصوب المجتهدين جميعًا ويرى أن ما انتهى إليه المجتهد هو المطلوب في حكم الله وفي شرع الله، فكلهم مصوبون، يسمونهم «المصوبة».

لماذا التشدد إذن؟ إن تيار التشدد ... تيار الغلو والتنطع، هو من التيارات التي نخافها على الصحوة الإسلامية.

تيار التشرذم والتمزق:

هناك أيضًا تيار التشرذم والتمزق والتفرق لكل جماعة، يريدون أن يجعلوا من أنفسهم أمة وحدهم ... هذا هو الخطر. تمزيق. لماذا هذا كله؟ لماذا لا يتعاون الجميع على العمل بالإسلام؟ نحن أمة مصابة بداء التمزق ... بداء التفرق مع وعيد الله وإنذاره: {**وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ**} [الأنفال:

46]. ولكن التنازع والاختلاف والتفرق مزقنا.

تجد هذا على المستوى العربي. هناك شيع وأحزاب، وتقديمون ورجعيون، ويمينيون ويساريون واتجاهات وسياسات. هناك في أبناء الوطن الواحد اعتبارات ممزقة ومفرقة، اعتبارات عنصرية، إقليمية، طبقية، مذهبية، داخل المجتمع الواحد، بل وداخل الأسرة الواحدة أحيانًا!

هناك أيضًا التمزق بين الذين يميلون إلى القديم، والذين يميلون إلى الجديد، الذي يسمون المحافظين، والذين يسمون المتحررين داخل الأسرة الواحدة.

بل أقول: هناك تمزق داخل الشخصية الواحدة. الشخص منا تجد هناك ما يجذبه إلى القديم وهناك ما يشده إلى الجديد، ممزق بين الماضي والحاضر، بين التراث والمعاصرة.

فهذا التمزق ينبغي أن تقف الصحوة الإسلامية منه موقفًا حاسمًا. لا ينبغي أن تساعد على مزيد من التشرذم والتمزق والتفرق.

نحن في عالم يتكلم بلغة التكتل، يتكتل بعضه مع بعض. الوحدة الصغيرة ما عادت تستطيع أن تبقى وحدها، نرى هؤلاء يتكتلون في أشكال سياسية وفي أحلاف عسكرية، في أسواق اقتصادية إلى آخر ما نرى الآن. المسلمون وحدهم هم الذين يريدون أن يبقوا وحدات صغيرة لا تكاد ترى على الخريطة، خريطة العالم، لم هذا التمزق؟ ثم تأتي بعض فصائل الصحوة الإسلامية تريد أن تزيد الأمور تمزيقًا. كل جماعة ترى أنها على الحق، والجماعات الأخرى على غيره. لم هذا؟ اختلفوا ما شئتم أن تختلفوا، ولكن لا تتفرقوا[3].

(3) عالجنا هذه القضية بتوسع في كتابنا: «الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم» نشر دار الوفاء.

كان بعض السلف يقول: نخالف ولا نختلف. يعني يمكن أن أخالفك الرأي وتخالفني في الرأي، ولكن هذا لا يؤدي إلى التفرق والاختلاف.

وهناك القاعدة الذهبية التي وضعها صاحب المنار حجح السيد رشيد رضا، وتبناها الإمام الشهيد حسن البنا: «نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه»[4].

ليكن لكل منا وجهة نظر في كثير من الأمور السياسية وفي الأحكام الفرعية، وفي المسائل الاجتماعية، ولكن هناك أشياء متفق عليها لنتعاون فيها: نتعاون على تثبيت الإيمان، وعلى محاربة الإلحاد، على تقوية الفضائل، وعلى محاربة الإباحية والتحلل، وعلى تماسك الأسرة، وعلى تماسك المجتمع، وعلى محاربة الأمية، وعلى محاربة الفقر، والجهل، والمرض، والرزيلة، وعلى الوقوف في وجه التيارات المعادية ... ما أكثر ما يمكن أن نتفق عليه! نتعاون على ما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه[5].

لماذا لا نقوم على هذا الأساس بدل التمزق؟

هناك بعض الإخوة عنده بعض الأماني والأحلام الكبيرة: يريد أن يجعل فصائل الصحوة الإسلامية في فصيلة واحدة، وأن يصهر الحركات الإسلامية في حركة عالمية واحدة، وهذه أمنية جميلة، ولكن دونها عقبات وعقبات: من طبيعة البشر، ومن ظروف الواقع. وليس من الضروري هذا التوحيد، وهذا الصهر والتذويب. فلا مانع من الصحوة أن تتعدد الفصائل، وتتعدد المدارس، وتتعدد الجماعات، على أن يكون تعددها تعدد تنوع وتخصص، لا تعدد تضارب وتناقض. كما جاء في تراث السلف عن اختلاف الأقوال: «هذا

(4) دللنا على صحة هذه القاعدة في الجزء الثاني من كتابنا: «فتاوى معاصرة».
(5) دللنا على صحة هذه القاعدة في الجزء الثاني من كتابنا: «فتاوى معاصرة».

اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد» فلتتعدد الجماعات والفصائل والمدارس تعدد تنوع: أعني: هذا يهتم بالعبادة، وهذا يهتم بالعقيدة، وهذا يهتم بإصلاح الأسرة، وهذا يهتم بالجانب الاقتصادي، وهذا يهتم بالجانب السياسي، وهذا بالجانب الاجتماعي، وهذا بالجانب التربوي والأخلاقي، ليكن كل واحد أو فصيل يهتم بناحية، على ألا ينكر على الآخرين ولا يحاول هدمهم، وعلى أن يقف الجميع صفًا واحدًا في القضايا المصيرية {**إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ**} [الصف: 4].

هذا بعض ما نخافه على الصحوة الإسلامية تيار الاستعجال والتصادم نخاف على الصحوة الإسلامية أيضًا من تيار الاستعجال، تيار المستعجلين الذين يريدون أن يقطفوا الثمرة قبل أوانها، يريدون أن يزرعوا اليوم ويحصدوا غدًا، بل يريدون أن يغرسوا في الصباح ويجنوا الثمر في المساء، وما هكذا سنة الله، سنة الله ليست هكذا، لابد أن نصبر على البذرة حتى تنبت، وعلى النبتة حتى تورق، وعلى الورقة حتى تزهو، وعلى الزهرة حتى تثمر، وعلى الثمرة حتى تنضج. وكل هذا يحتاج إلى وقت وإلى أجل مسمى. هناك سنن لله زززز ينبغي أن تراعى، ولذلك نجد بعض هذه الفصائل – حينما يجدون من أنفسهم قوة – يريد بسرعة أن يثبت على السلطة، أو يصطدم بالحكام، أو يقف مواقف لا يستطيع أن يخرج منها. لم هذا كله؟ ما كلفكم الله هذا. إن الاستعجال قد يدفع إلى العنف، وهذا العنف يدفع إلى عنف مضاد أشد وأقسى. وكل هذا خطر على الصحوة، وخطر على الأمة ذاتها.

تيار الاستغراق في السياسة:

هناك تيار الاستغراق في السياسة والانهماك السياسي والحياة السياسية، بحيث يطغى النشاط السياسي والعمل السياسي على الجوانب التربوية

والسلوكية. التي تعمل قبل كل شيء على بناء الفرد المؤمن، الذي هو نواة كل إصلاح وتجديد. لابد للصحوة أن تهتم بالتربية والتكوين المتكامل. كما يجب أن تهتم بالعمل الاجتماعي الإيجابي.

أنا أريد العمل الاجتماعي، وطالما ناديت بهذا، وهذا سر ما ناديت به من قيام الهيئة الخيرية والإسلامية العالمية. المبشرون في أفريقيا وغيرها يهاجموننا بكل سلاح: سلاح العمل الاجتماعي، العمل في مداواة المرضى، في مساعدة الفقراء. في رعاية الأيتام، في تعليم الأميين، وقد أوجب الإسلام علينا العمل الاجتماعي كل يوم تطلع فيه الشمس، حتى قال الرسول الكريم: «**على كل سلامي من الناس صدقة**» كل مفصل، وكل عظم، وكل عضو على المسلم صدقة، وهذه الصدقة اجتماعية: أن يغيث ملهوفًا، أو يعلم جاهلًا، أو ينبه غافلًا، أو يشغل عاطلًا، أو يداوي مريضًا، أو على الأقل يبتسم في وجه أخيه، أو يتكلم بكلمة طيبة، أو يميط الأذى عن الطريق، هذا هو الإسلام.

نحن نخاف على الصحوة الإسلامية من تيارات كثيرة لا استطيع أن أطيل في الحديث عنها، يكفي هذه الملامح أيها الإخوة.

الصحوة الإسلامية تستطيع أن تفعل الكثير، تستطيع أن تقدم الكثر لهذه الأمة، تستطيع أن تقود مسيرتها وأن تفجر طاقاتها، إذا سارت في المسار الصحيح، إذا رشدت مسيرتها، وسددت خطاها، وهذه مسئولية أهل العلم والفكر: ألا يكونوا معزولين عن هذه الصحوة. هذه الصحوة صحوة للجميع ليست صحوة لمجموعة من الناس إنها صحوة الإسلام في هذا العصر، فعلينا أن نرعاها وعلينا أن نسددها، وعلينا أن نقيها العثرات، علينا أن نمدها بالغذاء، علينا أن نشد أزرها وأن نقف وراءها، علينا أن نعاملها بروح الأبوة لا بروح الاتهام. علينا أن نعلم أن هذه الصحة هي خير ما في هذه الأمة في

هذا العصر، ونحن تعتقد أن هذه الصحوة هي القادرة بإذن الله على أن تقود معاركنا إلى النصر، معارك الجهاد والتحرير، ومعارك البناء والتعمير.

إننا ننتظر ذلك اليوم الذي تتحرر فيه أرضنا، ننتظر ذلك اليوم الذي نتبوأ فيه مكانتنا تحت الشمس، ننتظر ذلك اليوم الذي ندخل فيه المسجد الأقصى ونسترده من أيدي اليهود. نسترده حينما ندخل المعركة «باسم الله» حينما تخوضها الصحوة الإسلامية حقًا تحت راية العبودية لله، وتحت شعار الإسلام، حينما يقول الشجر والحجر: يا مسلم، يا عبد الله هذا يهودي ورائي فتعال فاقتله.

أسال الله سبحانه وتعالى أن يقرب هذا اليوم الذي ننتصر فيه بالإسلام {**وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ 4 بِنَصْرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ 5 وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**} [الروم: 4-6].

أعتذر إليكم أيها الأخوة إذا أطلت عليكم، وأقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

أجوبة عن الأسئلة من فضلة الدكتور يوسف القرضاوي

س: هل معنى الاعتدال التخلي عن بعض السنن الواردة عن الرسول صصص بحجة أن العلماء قد اختلفوا في حكمها ولأنها لا تتمشى مع القرن العشرين؟

ج: الأخ يجب أن يعلم – أولًا – ما هي السنة. هناك أحيانًا – للأسف – خلل في فهم معنى السنة، يجب أولًا أن تثبت سنيته فيتبع، وإذا اختلف فيه العلماء فيستطيع كل واحد أن يأخذ بما أطمأن إليه قلبه، ولكن أحيانًا تفهم السنة خطأ، مثلًا أفعال النبي صصص، هناك أفعال قصد فيها القربى لله زززز، وهناك أفعال تقع قصدًا أحيانًا. أضرب لكم مثلًا:

جاء واحد يقول لي: أنت يا أخي لماذا لا تعمل بالسنة؟

فقلت له: أي سنة؟ قال: أنت تخطب، ولكنك لا تحمل عصا، وأنت تطلع على المنبر بدون عصا، والنبي صصص كان يصعد على المنبر بعصا ... فقلت له: إن النبي صصص حينما كان يصعد على المنبر ما كان يأتي بهذه العصا خصيصًا لصعود المنبر. هو كان حامل عصا، فحينما أتى المنبر صعد إليه ومعه العصا. إنما أنا لم أحمل عصا في حياتي قط، فكيف أحمل عصا مخصوصة، وأقول: اتركوا هذه العصا في المسجد، مثل السيف الخشبي الذي كان يحمله الخطباء قديمًا ولا زال في بعض البلاد. كان المسلمون قديمًا أيام الفتح: قائد المعركة هو الذي يخطب بالمسلمين في المسجد، وكان يخطب ومعه سيف؛ لأنه مجاهد.

فالمسلمون في عصر القعود يريدون أن يفعلوا كما كان يفعل المسلمون في الماضي، فعملوا سيوفًا من خشب! فكانت مهزلة: أن تكون سيوف الناس

جميعًا من حديد، وسيوف خطباء المسلمين من خشب! فهذا هو الفهم المغلوط للسنة.

أذكر منذ عدة سنوات أنني كنت مسافرًا من الهند إلى باكستان، فركب معي شاب قادم من أمريكا يلبس جلبابًا قصيرًا ومعه عصا. وسألته عن وجهته فقال: أنا ذاهب إلى مؤتمر في لاهور. وسألته: من أين أنت قادم؟ فقال: أنا قادم من أمريكا. قلت: وماذا تعمل؟ فقال: أنا أدرس الهندسة الكهربائية. فقلت له: لماذا تحمل هذه العصا؟ فقال لي: إن هذه سنة. فسألته: وأنت هناك في أمريكا وأنت تدرس الكهرباء تحمل معك هذه العصا؟ فقال لي: لا.

لهذا أقول: يجب علينا أولًا أن نعرف ما هي السنة، سنة النبي صصص هي سنة الاعتدال والتوازن، سنة الجهاد، سنة العمل للحياة حينما قال: «**أنا أقوم وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني**» سنته هي منهجه في فهم دين الله وفي تطبيقه، هذه هي السنة.

س: إذا كنا في بيئة يعتقد أهلها أن المرأة كلها عورة مع الوجه والكفين ويستدلون بأحاديث يقولون إنها صحيحة كما أخبرهم بذلك علماؤهم، فهل يجوز لنا أن ندعو بالتكشف ورفع النقاب عن وجه المرأة ونخبرها بأن الوجه والكفين ليستا بعورة؟

ج: لا يا أخي. لن نقول لها ذلك. دعها تغطي وجهها وكفيها، ولكن لا نقول لمن كشفت وجهها وكفيها: إنك عصيت الله! هو هذا، المهم: أني لا أقيم الدنيا من أجل المرأة التي غطت جسمها وتركت الوجه والكفين. أقول لها هذا هو رأي ابن عباس ورأي عائشة ورأي أنس بن مالك ورأي سعيد بن جبير حتى لا تشعر بالإثم. يجب أن نذكر الأراء المخففة والميسرة. في سنة (1929م) عملوا قانونًا للأحوال الشخصية خارجًا عن مذهب أبي حنيفة – تعرفون أن

البلاد الإسلامية ورثت المذهب الحنفي من أيام الدولة العثمانية. فكانت في أول الأمر متقيدة بالمذهب الحنفي، والمذهب الحنفي فيه تشديدات في بعض الأمور، فالشيخ المراغي حجح أراد أن يخرج الناس من تشددات المذاهب فصدر مشروع قانون في ذلك الوقت يتبنى أراء شيخ الإسلام ابن تيمية، والناس ناقشوه: فقال لهم: يا جماعة، أنا أريد أن أحافظ على بقايا الضمير الديني عند الناس ... ماذا يعني بقايا الضمير الديني عند الناس؟ مثلًا «ابن تيمية يقول: اليمين بالطلاق – إذا أراد الحمل على شيء أو المنع منه – أن هذا لا يقع به الطلاق وفيه كفارة يمين وأنا أفتي بهذا» هذا عند المذهب الحنفي والمذاهب الأربعة واقع ... الرجل البائع أو الشغال طوال النهار يحلف بهذه الطريقة، يحلف ولا يفعل شيئًا، يعود إلى بيته وهو يعتقد أن امرأته طالق منه، ويعيش مع امرأته على اعتقاد أنه يعيش في حرام، ولذلك يظن أن حياته كلها حرام في حرام، وما دامت حياته حرام في حرام، فلا مانع أن يأكل المال الباطل، وأن يسرق وأن يرتشي، وأن يعمل أي جريمة أخرى. ويقول لك: إن حياتنا كلها حرام في حرام حتى أولادنا أولاد حرام. الشيخ المراغي قال: لا. أنا أريد أن أحفظ عليه دينه بأن أقول له: لا، أنت لم ترتكب حرامًا وطلاقك هذا غير واقع فأنا في هذه الحالة أبقيت عليه ضميره الديني، فأنا أريد للمسلمة التي تكشف وجهها وكفيها أقول لها: لا أنت لم ترتكبي معصية بل أنت على مذهب الجمهور ... هذا ما نريده ... أما لو كان هناك مسلمة تريد أن تغطي وجهها وكفيها فلا حرج عليها وهي حرة في الالتزام بالأحوط وجزاها الله خيرًا.

س: هل تقصد التمزق في الشخصية بالمشاركة في أكثر من جماعة؟

ج: أنا لا أقصد المشاركة في أكثر من جماعة، بالعكس هذا الأحسن – إن

أمكن وتيسر – أن الإنسان يشترك في أكثر من جماعة ويأخذ من كل جماعة أحسن ما فيها هذا ليس تمزقًا بحال أنا أقصد بتمزق الشخصية: أن تتنازع الإنسان عوامل متنقضة، هذه تشده إلى الماضي وعوامل تشده إلى الحاضر أعني: أنه غير قادر على أن يحدد وجهته وغايته ومنهجه في الحياة ولا قادر أن يحدد طريقه، هذا هو التمزق الذي نشكو منه هنا في الشخصية وفي المجتمع ... هو مسلم وماركسي، هو غربي، شرقي، متدين وعلماني، يحج ويأكل الربا، يصلي ويسبح، ومع هذا يقبل غير شرع الله.

المطلوب تحديد الهوية ... تحديد الذات. معرفة الذات، من أنت؟ لابد أن تعرف: من أنت ... إذا عرفت من أنت، وحددت وجهتك، وأنها لله سبحانه وتعالى، ينتهي التمزق، ويتضح الأمر وتنحل العقدة.

{قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ 162 لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: 162، 163].

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته